المحاضرة التاسعة

مشكلات ابستمولوجية في الانثروبولوجيا وعلم التاريخ

– الأنثروبولوجيا، المولد والمفهوم:

عرفت الأنثروبولوجيا منذ سنة 1850 توجهات نظرية مغايرة بحيث لم تتمكن من التأسيس لتقاليد علمية، وهذا راجع إلى تنوع، وتغيّر الثقافات مما أثّر على عليها، وفي إمكانية نظرة كونية في مجال دراسة المجتمعات الإنسانية.

ليس من السهل ضبط مفهوم الأنثروبولوجيا، خاصة إذا عليمنا أن مثل هذه العلوم التي تتناول كموضوع الجنس الإنساني Le genre humain، وهو موضوع يتصف بالسعة والتعقيد مما يجعل الإلمام به من الصعب بما كان.

ولدت الأنثروبولوجيا وتطورت خلال القرن 19، والذي عُرِفَ بقرن النزعة الاستعمارية، وقرن حاول العلماء الأنثروبولوجي فيه إثبات أن الإنسان الحديث هو نتاج تاريخ طبيعي طويل، وهل بإمكان هذا التاريخ تفسير التمايز الجسمي، والنفسي (العقلي)، والاجتماعي، الذي عمل الباحثون على كشفه في مختلف القارات؟ ولماذا الكائن الحي (الإنسان) الذي يتصف بالوحدة، يتأثر التغيرات الجماعية، مثلما هو حاصل في المجتمعات الحيوانية؟ وهل هذه التغيرات طبيعية، أم أنها تتعلق بنشاط الإنسان ذاته؟

إن الأنثروبولوجيا هي وليدة محاولة المفكرون الطبيعيون، والفلاسفة، وكذا الأنثروبولوجيون الاحترافيون، الإجابة عن هذه الأسئلة، معتمدين في ذلك على مناهج أساسها، في أغلب الأحيان، الملاحظة المباشرة.

– النظريات:

بالرغم من توجيه التجريبيون للباحثين الأنثروبولوجيين منهجيا، فإنهم بحاجة إلى أساس نظري في توجيه بحوثهم، لذلك نجدهم يستعيرون نماذجهم من: العلوم، والفلسفات الطبيعية، والسيسيولوجية، والسيكولوجية، التي تتعايش معها في وئام، وقد سطّرت الأنثروبولوجيا تاريخيا أربعة مراحل مرت بها:

- 1920-1850 Racialisme et Évolutionnisme
- 1940-180 Le diffusionnalisme et le premier culturalisme
- 1950-1920 Le fonctionnalisme britannique et le second culturalisme
- 180-1950 Le structuralisme et le néo-évolutionnisme [1]

1 Jean-François Dortier, (Sous la direction), Dictionnaire des sciences humaines, p 1680.

إن تلاحق المدارس في الأنثروبولوجية يعطي انطباعا بأن هذا النشاط عير مستقر، وذو أبعاد غامضة وغير واضحة، خاصة بالنسبة لموضوعه، ومنهجه، ومبرراته، إلا أن هناك خيطا واصلا يربط هذه المواقف المتلاحقة وهذا ما نلاحظه من خلال موضوع الدراسة مثلا.

بالنسبة للموضوعات التي تتناولها الأنثروبولوجيا:

- نظام القرابة والزواج
- أنماط الحكم والسلطة
- المعتقدات السحرية
- العادات والتقاليد

– الأنثروبولوجيا اليوم:

إن اكثر البحوث الأنثروبولوجية انتشارا في أوروبا اليوم:

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية Anthropologie sociale et culturelle وهذا النوع من الدراسة هو الأكثر هيمنة، وهي في تنافس مع المقاربات الطبيعية المتأثرة بالداروينية في أمريكا، مثل: الإيكولوجيا الثقافية، وعلم النفس التطوري.

في فرنسا عرفت الأنثروبولوجيا نوعين من التغيرات، احداها يتعلق بالموضوع، والأخرى بالمنهج. أما من حيث الموضوع، فيتعلق الأمر بظهور موضوعات جديدة منها:

- الأنثروبولوجيا الحضارية – إثنولوجيا العالَم المعاصر

وفي الوقت نفسه تظهر كثير من الشكوك والانتقادات حول هذا النشاط، خاصة تلك الآتية من البلدان الأنجلو- سكسونية. إن مختلف التيارات تعمل على معارضة طريقة نقل المعلومات، والكتابة، وما يقدمه الأنثروبولوجي منها صاحبة النظرة الاستعمارية. و**بالتالي يفقد العلم بُعده الموضوعي**، مما يجعله ابستمولوجيا عرضة للنقد خاصة بعد ظهور المقاربات الجديدة الناتجة عن علم النفس المعرفي، أو التحليل النفسي.

– الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا:

– الاختلاف: في فرنسا يستعملان بنفس المعنى.

منهجيا: الكلمات، الأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا Ethnologie، والإثنوغرافيا Ethnographie تكوّن صورة تمتد من الملاحظة إلى النظرية.

الإثنوغرافي: ينقل الأحداث (الوقائع)

الإثنولوجي: يحلل ويقوم بنمذجة وسائله

الأنثروبولوجي: يهتم بالمقارنات ويقدم النتائج، ويبني النظريات.

بالأمس، كانت هذه النشاطات الثلاثة متميزة، أما اليوم فهي ملتحمة، بحيث ان الإنثنو/ أنثروبولوجي يبدأ كونه إثنوغرافيفي الميدان، وإثنولوجي حين يحرر ويكتب، والأنثروبولوجي حين يقارن ويميز الوسائل عن أخرى، أو ينتقد منهجه، أو يعمم أفكاره.

– لكلا النشاطين تاريخ: في القرن 19 في فرنسا، كانت **الأنثروبولوجيا** عبارة عن علم طبيعي، تهتم بدراسة الأنواع المادية للقارات الخمس. اما الإثنولوجيا، في بداية القرن، كانت تعني التصنيف الثقافي لهذه الأنواع الطبيعية. في سنة 1950 قام كل من العالمان: كلود لفي ستروس، وجورج بلاندييه Georges Balandier وهما يحاولان التوسيع في موضوع نشاطهما، استعملا مفهوم الأنثروبولوجيا بالمعنى الشاسع، والشائع في البلدان الأجلو–سكسونية، أي ارجاعها، إلى معنى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الثقافية. ومهما يكن، فحين يتعلق الأمر بنشاط يقوم على معاينة الميادين، يسمى من دون شك إثنولوجيا[2].

بالرغم من محاولة الأنثروبولوجيين، التأسيس لعلمية نشاطهم، يبقى هذا العلم فيه من النسبية ما يجعل منه بحاجة إلى تطوير اكثر، ذلك لأنه بحاجة إلى علوم ومباحث اخرى، كالتاريخ، وهذا الأخير يعاني هو كذلك من نقص في علميته، كما يحتاج إلى علم الحفريات، وعلوم اخرى منها الإنسانية تبحث عن نفسها وهي علوم ليست كذلك بالدقيق، وهكذا يؤسس هذا العلم على تقاطعه مع ما هو أقل منه علمية. ومن جهة أخرى يصعب وجود انثروبولوجيا ليس وراءها دافع ايديولوجي، وهذا ينقص من موضوعيتها، ويجعلها في خدمة المصالح بدلا من خدمة الإنسان.

– أنثروبولوجيا أم أنثروبولوجيات

لا يمكن الحديث عن نوع واحد من الأنثروبولوجيا كونها تتداخل مع كثير من الشعب المعرفية وتستعين بها فهي تتفرع إلى:

– أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية.

– أنثروبولوجيا اللّغة.

– أنثروبولوجيا فيزيائية.

– علم الحفريات (الأركيولوجيا).

---

2 Jean-François Dortier, (Sous la direction), Dictionnaire des sciences humaines.

مشكلات ابستمولوجية في علم التاريخ:

التاريخ، أو علم الماضي، لا ينقل لنا ما حدث في الماضي فحسب، بل هو مرآة للبراديغمات السياسية، والدينية، والعلمية.

خلال القرن 19 عرف التاريخ حركة غير مسبوقة، واحتل بذلك مكانة هامة بين العلوم الإنسانية، وإن تم ذلك لأغراض علمية واخرى أكثرها غير علمية (استعمارية، ايديولوجية، دينية...).

يرتبط هذا النشاط على العموم بالتاريخ الوطني Histoire nationale، كما يرتبط بالدول والشعوب التي تعمل على اعادة رسم تاريخها. للتاريخ في هذه الحالة، اهمية قصوى لدى بعض الشعوب والدول، فهو مثلما عبّر عنه Paul Veyne في كتابه: Comment on écrit l'histoire ? 1971 بقوله: "التاريخ رواية حقيقية" بكل بساطة لأنه مطالب بتحري الحقيقة وقول الحقيقة.

يحمل التاريخ عبر الزمن الكثير من التحديات الكبيرة. في البداية، في الجانب الديني، والسياسي، واليوم في الجانب الابستمولوجي، التي جعلت منه مركز النقاشات والجدل الحاد في أوساط المؤرخين.

هل يمكن أن يكون التاريخ علما؟ أو علما اجتماعيا؟ فإذا كان الجواب بنعم، فما هي مبادئه، ومناهجه، وموضوعاته؟ وكيف يمكن اثبات مشروعيته العلمية؟ هل يتصف البحث التاريخي بالموضوعية؟ هذه الأسئلة في الحقيقة ليست جديدة، لكن برزت بشكل واضح خلال القرن 19 أثناء مولد المدارس التاريخية التي أظهرت نوع من التفكير التاريخي حول ذا النشاط.

– التأريخ Historiographie أو علم التاريخ، أو تاريخ التاريخ، ظهر في القرن 19 في ألمانيا، وابتداء من القرن 20 احتل التأريخ مكانة كبرى لدى المؤرخين بجميع جنسياتهم، الذين واجهوا المشكلة: كيف نؤرخ؟ وهو الموضوع الذي دخل الجامعات في تدريس التاريخ.

– الأصول:

– عند الإغريق: بداية مع هيرودوت الإغريقي Hérodote (484-425 ق م)، الذي كان يروي قصص الحروب بين الإغريق والفرس، وقد اسس للرواية التاريخية من خلال ملاحظاته الدقيقة أثناء رحلاته، والشعوب التي يلتقي بها، وقد كان يقول:"إن الزمن لا يلغي عمل الرجال، وأن الانتصارات المحققة سواء من طرف الإغريقيين، أو من

طرف البربر، لا تنسى."[3] ثم مع ثوقيديدس (ثوقيديد) Thucydide، (460-395 ق م) مؤرخ إغريقي شهد الحرب التي اشتعلت بين أثينا وإسبرتا 431-404 ق م، ويعتبر مثله، مثل هيرودوت مؤسس لعلم التاريخ.

– في القرون الوسطى: تحول التاريخ إلى تاريخ مسيحي يركز على تقاليد العهد القديم، والإنجيل، وهو الأكثر مقتا لاعتباره تابع للكنيسة واللاهوت.

– في عصر النهضة والتنوير: حتى القرن 18 اتّخذ التفكير التاريخي اتجاهات متعددة، من نزعة إنسانية، وأخرى إلحادية، الذين بدأوا في تطبيق منهج يعتمد على تحليل الوثائق الأصلية (الدينية وغيرها)، والتحليل النقدي للصول.

جاء بعدهم تجار وجامعي التُحَفْ Les antiquaires، وبفعل شغفهم بالآثار الإغريقية، والرومانية، فإنهم واصلوا عملهم واضعين بذلك أسس عملية الاطلاع والمتابعة الحديثة.

في القرن 18 أظهر الفلاسفة، أمثال: مونتسكيو، ديدرو، كوندوسييه وغيرهم، اهتماما بالغا للتاريخ، وأسسوا **لفلسفة التاريخ**، موجهة إلى التساؤل حول أصل الأمم، وتاريخ الحضارة، ومسيرة التطور الإنساني. وفي القرن 19 وبتطور العقلانية، عمل الفلاسفة أمثال: كانط، هيغل، ماركس كل حسب طريقته، على التأسيس لتاريخ الإنسانية كطريق نحو الحرية تحت نور العقل.

دائما في القرن 19 ظهرور أنماط من التفكير التاريخي:

– تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية

– التاريخ الاقتصادي

– التاريخ الثقافي

– التاريخ العام

التاريخ المنهجي، ناتج عن الوضعية، أو التاريخ الوضعي.

– علم الاجتماع في مواجهة المؤرخين:

بعد تطور علم الاجتماع على يد دوركهايم، وجّه بعض علماء الاجتماع أمثال: Simiand نقدا للتقليد الوضعي، متهما إياه باختزال التاريخ في وصف الظواهر الخطيرة، والحوادث بالصدفة، في حين علم الاجتماع قادر على وضع قوانين وبناء نظم، وبالتالي يدعو سيميوند متحد المؤرخين إلى التخلص من الأصنام الثلاثة:

---

3 Hérodote, Histoire : prologue, Tome 1, Livre 1.

السياسي – الكرونولوجي – والفرد، اي التخلص من تاريخ الحروب والمعارك المؤسس على التتبع الكرونولوجي للأحداث العسكرية، وهيمنة السلاطين.

إن هذا النقد له ما يبرره من الناحية الأبستمولوجيا، ذلك أن التأمل في موضوع التاريخ، ومنهجه، ونتائجه ينطبق عليه الحكم، الذي ينطبق على العلوم الإنسانية عامة، أي للأسباب التالية:

– من حيث الموضوع: الحادثة التاريخية التي تتصف بأنها إنسانية، واجتماعية وفرية من نوعها، لا تتكرر

– من حيث المنهج، الأحدث منه: النقد التاريخي، والتاريخ المقارن، والإستدلال (في حالة وجود ثغرة أو حلقة مفقودة في التاريخ يسدها المؤرخ من خلال الاستدلال وهذا نوع من إقحام المؤرخ ذاتيته)، هذه الطرق في التعامل مع الحادثة التاريخية لا تتصف بالدقة المطلوبة، نتيجة تأثير بعض العوامل الذاتية: مثل التشيع للجنس أو العرق، أو التحيز لإيديولوجية معينة، التأثير الديني، وكل هذ يؤول إلى الكذب في التاريخ، أو كما عبّر عنه ابن خلدون.

في اعتقادي، أن التاريخ هو أكثر العلوم الإنسانية عرضة للخطأ، إلى درجة أننا لا يمكن الحديث فيه عن الحقيقة التاريخية، وهذا بالرغم من تطور وسائل تسجيل الأحداث التاريخية، التي غالبا ما تتعرض إلى التزييف.

الكذب في التاريخ لإبن خلدون (مشكلة الذاتية)

مراجع المحاضرة:

- كتاب جماعي، تقديم، عبد الرزاق بلعقروز، سؤال المنهج في العلوم الاجتماعية، منتدى المعارف، 2019.

- Jean-François Dortier, (Sous la direction), Dictionnaire des sciences humaines.

- Hérodote, Histoire : prologue, Tome 1, Livre 1.